

# أنباء وآراء

فضل العرب على الأفرنج

لا يخفى على من له إلمام بالتاريخ ، أن المسلمين من العرب لما فرغوا من الفتوح الشرقية صرفوا عنايتهم إلى فتح القرب ، حتى أغاروا على بلاد فرنسا تحت قيادة عبد الرحمن النافقي في عهد هشام بن عبد الملك عامر الخلفاء الأمويين ، فدخلت الأيالة الجتوية كلها في حكمهم ، واستوطنوا تلك الأيالة وعمروا عدة من مدنها ، وخالطوا أهلها ، وتزوجوا قبيهم ، واشتغلوا بزراع أراضيها والآبجار مع أهلها ، فحدثت العلاقة الوثيقة الودية بين العرب والفرنسيين وظهر بينهم ما لدى العرب من الحضارة والآداب والعارف والأخلاق والعسادات ، ولاقوا الحكماء والأدباء والشعراء والأطباء من عصر الدولة الأموية إلى عصر صلاح الدين الأيوبي . وكانت الأمة العربية إذ ذاك من الأمم المتعدنة وكانوا أكل آداباً وأوسع علوماً وأعلى حضارة من جيرانهم الأفرنج . وكانت لهم المدارس والجامعات في قرطبة واشبيلية وغيرها ؛ وكان يدرس فيها علم الفلسفة والهيئة والطب والكيمياء والتاريخ والأدب والشعر إلى غير ذلك ... ولم يكن في أهل فرنسا إلا جماعة من الأساقفة ممن يحفظ شعر « فرجيل » اللاتيني ، فرغب أهل فرنسا في تعلم علوم العرب ، واشتاقوا إلى تحصيل آدابهم ، فأول من بادر إلى طلب معارف العرب اليابا « سلفستر الثاني » فقد سافر إلى أرض الأندلس فبلغ اشبيلية ، وكانت مركزاً علمياً ، وكانت فيها مدرسة كبيرة جديدة بأن يقال لها « جامعة » فأقام اليابا بتلك الجامعة ثلاث سنوات ، وقد كان تعلم مبادئ العلوم في اللغة اللاتينية ، فجاز حفظاً وافرأ من العلوم ، ثم رجع إلى موطنه متنوراً بأنوار المعارف ، حتى حسبه الناس ساحراً ، وانتفع باب علوم العرب تقوده ، وارتقى بركة المعارف العربية متدرجاً إلى المنصب الأجل ؛ الياباوية . وقيل إنه أول من أجرى الأرقام في بلاد

الأفرينج أخذاً من العرب ، فلما عين أهل بلاده فضل هذا البابا وشرفه زادت رغبتهم في اكتساب علوم العرب وارتحل كثير من تلامذة الأفرينج الى مدارس الأندلس ، ودخلوا فيها أفواجاً ، وكانت الأندلس في ذلك العصر في أوج العلوم والآداب ثم رجعوا الى أوطانهم متنويرين متبحرين في العلوم والفنون . فأقاموا في الأندلس الكبار ، وأفادوا الناس الفوائد العلمية تدریساً وتعلیماً ، فانتشرت علوم العرب وانعمت في بلاد الأفرينج ، حتى دخلت المصطلحات العلمية العربية في مؤلفات علماءها وجمت الكتابة بالعربية مباني أهلها وقصورها وكها وأمرائها . قال سديقيو : « إن كلمات اللغة العربية قد دخلت في اللغة الفرنسية أكثر مما دخل فيها من اللغة اللاتينية » . وقال لامنس : « إن الأفرينج قد أدخلوا في لغاتهم تسمةائة لفظ من اللغة العربية » .

ولم يكن أهل فرنسا عاين بعلوم اليونانيين ولا قادرين على ترجمة كتب أرسطو وغيره لعدم معرفتهم بلغتهم اليونانية ، فأخذوا علومهم عن فلاسفة العرب ، ونقلوا الكتب اللاتينية المترجمة من الكتب العربية المترجمة من اليونانية والسريانية الى لغتهم الفرنسية ، وأوجدوا التفسيرات الفلسفية والمنطقية وغيرها . وألقوا في علوم الأخلاق والسياسة والاقتصاد ، وجموا لغتهم الفرنسية وصارت مارسيلية ، وطولون ، ونابولي ، ومانت بليز حيا كزلفلسفة العربية في فرنسا . ولما تعلم الأفرينج من كتب الاسلام فلسفة أهل اليونان ، تهافتوا على تعلم أدب اليونان وحفظوا أشعارهم وتبحروا فيها ، فظهر فن التشخيص « المحاكاة » فيهم ، ثم وضعوا فيه مؤلفات كثيرة واشتهر منها مؤلفات أوربيد ولا سيما رواية اندروماق التي تسج راسين على منوالها .

وما كان عند الأمة الفرنسية تاريخ للوفائع الحادثة في أرضهم ولا لدولتهم ولا لمؤسستهم لأسمائهم وجلسهم ووفائهم وحرورهم ، فلما لاقوا المؤرخين من العرب وتبادلوا الأقوال بينهم تفتنوا لضرورة التاريخ ، وأقروا بالفوائد التاريخية ، فاهتدوا الى وضع كتب التاريخ بمداية العرب وارشادهم وأنف بعض الرهبان السالسين طريفة القديس دنيس St Denis تاريخاً لدولة الأفرينج فكان هذا أول سجل لضبط وقائع مارك الأفرينج وتاريخ جلسهم ووفائهم وحرورهم .

وفتحوا في القرن الثالث عشر مدرسة للطب في مدينة « مون بيليه » وهي أقدم مدرسة

## فضل العرب على الأفرنج

في أوروبا بعد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي ، وكانت أطباء العرب واليهود المستعمرون يلقون فيها درس الطب ، وأسماها في طولون جمعية أدبية ، ودعواها مدرسة العلم الأفرنج Collège de Gai Savoir وتسمى أكاديمية الأزهار وكان لفكتور هوغو Victor Hugo منها أوفر نصيب .

سافر هوغو مع أبيه إلى الأندلس صراراً ، فتأثر بالشعراء الأندلسيين ، ولهذا يشبه كلامه كلام شعراء العرب ، كتب في مقدمة « الشرقيات » أن الناس كانوا ماهرين في العلوم اليونانية لكنهم صادوا الآن ماهرين في العلوم الشرقية Legacy of Islam وفي تأليفه « أوراق الخريف » ترى مماثلة عجيبة من الشعر العربي كتب إن سرور العائلة بالأولاد ، فلا ريب أن الشاعرين الشهيرين فكتور هوغو الفرنسي والمري العربي في هذا الأمر على طرفي نقيض ، واسكنها بتفنان في تمجيد الله وغيره ، فمن شاء التفصيل فيطالع اللزوميات للمري وأوراق الخريف لهوغو . وهكذا قرض قصيدة أخرى عنوانها « الشمس الماربات » وصور فيها « غروب الشمس وظهور الشفق وتكاثف الغيوم على الأفق ، واستبدل بمنظره في المخلوقات على وجود الخالق » وهذا كما قال الشاعر العربي المري : —

أرى الخلق في أمرين ماض ومقبل      وظرفين ظرفي مسيدة ومسكان

إذا ما سألنا عن مراد إلهنا      كنى عن بيان في الإجابة كان

أو كما في القرآن الكريم : « إن في خلق السموات والأرض وأختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خذت هذا باطلاً سبحانه فبقنا عذاب النار » . وهوغو قصيدة أخرى ، وهي « الدعاء للجميع » وهذه القصيدة مشتتة على التواضع البشرية والفلسفة الاجتماعية ، وفيها يخاطب الشاعر ذاته ، ويطلب منها الدعاء ، ولعله قلد في هذه الطريقة القرآن الكريم : « وأخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمها كما ربياني صغيراً » . أو كما قال المري في اللزوميات :

« وأعط أبك النصف حياً وميتاً      وفضل عليه من كرامتها الأتما

أقلت خفياً إذ أقلتك مثقلاً وأرضعت الحولين وأحتملت تما  
وأقلتك عن جهد وأفتاك لذة وضعت وشمت مثل ما ضم أو شمتا  
ولو فتشنا كلام العربي أو ما ورد على شاكلته من الشعر العربي لوجدنا فيه كثيراً من المعاني  
الواردة في قصيدة « الدعاء للجميع » .

وفي الختام أسطر نبذاً مما اقتبسه الأفرنج من قواعد الشعر العربي والعلوم الأخرى ، فعلموا  
أن العرب كانوا أمراء المعاني والبلاغة ورؤساء البيان والفصاحة ، ولغتهم كانت مشحونة بأنواع  
التشبيه والاستعارات . ولا ريب في أن الشعر العربي أكثر حلاوة ورقة ، ولكل من القوافي  
والأوزان وترغاتها الموسيقية تأثير خاص يعبرون عنه بالسحر الحلال ، فلما اختلط الأفرنج بهم  
تأثروا بها غاية التأثر ، حتى حادوا عن تعلم أشعار اللاتين وأكبوا على تعلم أشعار العرب وأزجالهم ،  
وكان فقرائهم كما قيل « ينشدون الأناشيد والمدائح العربية فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم  
لا لفهمهم ما يقولون وإنما شوقاً منهم وهتافاً للألحان والألغام والقوافي الرنانة » . فأستطاعوا  
الشعر الأفرنجي بأستعمالهم القوافي التي لم تكن في أشعارهم ، وكان لهم فن من الشعر يسمونه « تانسون  
Tensou » فالقافية عند الفرنسيين كما قيل « هي اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة وما يتبعها  
من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وياج (Sage, Page)  
فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي ، وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن  
القافية ما يسمونه « أسونانس Assonance » وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر  
عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين ، مثل ساج Sage وآرم Arme ، واتفق العلماء  
على أن الأفرنج قد أخذوا القوافي عن العرب ، وأخذوا عن العرب أيضاً في المنظوم أنواع المدح  
والغزل والهجو والهزل ، كما أخذوا عنهم في النثور الملح على نهج كلبلة ودمثة ، وخروب أمثال  
لقمان ، وبقية الحكايات المؤلفة على أسنة الحيوانات ، فمن ذلك « رومان أعلب » و « أمثال  
ايروب » و « رومان روز » وقيل « منها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم ، وجاروا العرب في

## فضل العرب على الأفرنج

الفكاهات ، وألقوا حكايات وطرائف على قسوس القري وخدم الكنائس ليضخسكوا منهم  
الأمراء والفرسان الذين يسمونهم شيفالية . هكذا تعلم الأفرنج الفلسفة والطب والأرقام  
والتاريخ وفن التشخيص « المحاكاة » والقوافي ورقعة الغزل وآداب النظم وتلحين الأغاني  
بفضل العرب وعلومهم ونقلوا منهم القصص المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في  
تواريخ الأدب الفرنسي وإلى ذلك أشسار الموسير رينه دوميك في كتابه التداول بأيدي  
طلبة العلم في عموم المدارس الفرنسية

الله آباد — الهند

محمد أحمد الصديقي